مجلة المنهل ـ المجلد: 09، العدد: 01 (2023 م) ـ ص ص 235 – 266
ISSN : 2437 – 1068 ● EISSN 8392-2710

معالم الوعظ والخطابة عند الإمام ابن الجوزي

The features of preaching and rhetoric of Imam Ibn al-Jawzi

د. سليمان بن صفية (*)
جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية
مخبر الشريعة – خروبة، الجزائر
Bensefiasalim2021@gmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2022/05/20	2023/04/28	2023/06/25

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

من أعظم وسائل الدعوة إلى الله الوعظ والخطابة بأنواعها، وقد أولاها الشرع الحكيم والعلماء الأفذاذ عناية بالغة، ومن هؤلاء الإمام ابن الجوزي، فما هي معالم الوعظ والخطابة عند ابن الجوزي، وما ضوابطها، ومصادرها، وما صفات الواعظ والخطيب؟ وتهدف الدراسة إلى بيان المعالم التي سلكها ابن الجوزي في وعظه خطابته ليحصل به الاقتداء، ولتحقيق ذلك سلكت منهجين: المنهج الاستقرائي، والتحليلي.

الكلمات المفتاحية:

الخطابة؛ الوعظ؛ ابن الجوزي

Abstract :

One of the greatest means of calling to God is preaching and rhetoric of all kinds, and the wise Sharia and distinguished scholars have given them great care, and among them is Imam Ibn al-Jawzi. The study aims at clarifying the milestones that Ibn al-Jawzi followed in his preaching of his rhetoric so that he could be emulated

Keywords:

rhetoric; preaching ;Ibn al-Jawzi

□

(*) المؤلف المراسل.

1.مقدمة

اللسان هو أداة التبليغ والإفصاح، وجُعلت هذه الأداة البليغة من أساليب إرشاد الناس ونصحهم في أعظم اجتماع يجتمع فيه المسلمون، فشرع الله لعبيده خطبة في كل جمعة، يجتمع فيها سواد الناس، لسماع كلمة الحق، وأوامر الشرع، وخصّ هذا الاجتماع بأركان وشروط وصفات، وأضفى عليها حلل المهابة، ولبوس الوقار.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الاجتماع، بل سنّ لعباده من هذه الخطب أصنافاً، موزعة على الأمكنة، والأزمنة الفاضلة

وبهذا كان هذا الأسلوب الشرعي، من أعظم أساليب بلاغ هذا الدين.

ولقد حفظ لنا التاريخ الإسلامي عبر عصوره المتتابعة، خطباء ووعاظ أفذاذاً صدعوا بالحقّ، وألانوا قسوة القلوب، وأسالوا نهر الدموع، وتركوا آثاراً عظيمة إلى يوم الناس هذا.

ومن هؤلاء الأفذاذ إمام الوعظ في عصره، الذي بزّ أقرانه، وحمل لواء الوعظ في زمانه، وأعي من أتى بعده على لحاقه، ألا وهو الإمام ابن الجوزي رحمه الله.

ومن نظر في خطبه ومواعظه، وثنى البصيرة في كتبه، استبان له عظم شموخ وعلو كعب هذا الإمام في فنّ الخطابة والوعظ.

والأمة اليوم أحوج ما تكون إلى صاحب اللسان والبيان، الذي يجمع القلوب، ويثير مكامن الخير في النفوس، ولا سبيل إلى وجود هذه الصفوة المنشودة إلا بتمثُّل الخطباء لمنهج سلفهم الصالح؛ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ (الأنعام: 90).

قسّمت البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث ثم الخاتمة.

المبحث الأول: التعريف بابن الجوزي، وبالوعظ والخطابة

المبحث الثاني: ضوابط الوعظ والخطابة عند ابن الجوزي

المبحث الثالث: مصادر الوعظ والخطابة عند ابن الجوزي

المبحث الرابع: صفات الواعظ والخطيب عند ابن الجوزي

2.المبحث الأول: التعريف بالإمام ابن الجوزي، وبالخطابة

المطلب الأول: التعريف بالإمام ابن الجوزي

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي القرشي التيمي البكري ثم البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ صاحب التصانيف المشهورة[1]. ولد سنة: سنة 508هـ، وقيل: غير ذلك.[2]

ونشأ رحمه الله يتيما في بيت عريق، وأسرة كريمة، وحبّب إليه العلم في الصغر؛ قال ابن كثير: "وكان هو صبي ديناً مجموعاً على نفسه لا يخالط أحداً، ولا يأكل ما فيه شبهة"[3].

يقول رحمه الله –عن نفسه– : "فأقول عن نفسي وما يلزمني حال غيري: أنني رجل حبب إلي العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به، ثم لم يحبب إلي فن واحد منه، بل فنونه، ثم لم تقتصر همتي في فن على بعضه، بل أروم استقصاءه..." [4].

ومن أهم شيوخ ابن الجوزي الذين تأثر بهم: ابن الزاغوني [525 هـ]. وعبد الوهاب الأنماطي [538 هـ]. وأبو منصور الجواليقي [540هـ]، وأبو الفضل ابن ناصر [550هـ]، وغيرهم كثير.

مؤلفاته: ذكر الأستاذ عبد الحميد العلوجي في كتابه (مؤلفات ابن الجوزي) حوالي خمسمائة مؤلف له، منها: – دفع شبه التشبيه– منهاج الوصول إلى علم الأصول. –أحكام النساء –زاد المسير في علم التفسير–بستان الواعظين ورياض السامعين. – تبصرة المبتدئ وتذكرة المنتهي. – تلبيس إبليس– الموضوعات.

عنايته بالوعظ وثناء العلماء عليه: ابن الجوزي رحمه الله عالم مكثر، وصاحب تصانيف عديدة، والمتتبع لما كتبه العلماء عنه، وما قالوه فيه، يرى أن غالب هؤلاء ذكره نبوغه وتفوقه في مجال الخطب والوعظ والتذكير.

قال ابن خلكان:" كان علامة عصره، وإمام وقته في الحديث، وصناعة الوعظ، صنف في فنون عديدة".[5]

---

(1) انظر: طبقات المفسرين 276/1.
(2) انظر: ذيل طبقات الحنابلة 400/1، وفيات الأعيان 142/3.
(3) البداية والنهاية، لابن كثير 35/13.
(4) صيد الخاطر (ص76– 77).
(5) وفيات الأعيان (140/3).

قال الإمام الذهبي عنه:" كان رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق والنثر الفائق بديهاً، ويسهب ويعجب، ويطرب ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ والقيم بفنونه مع الشكل والحسن، والصوت والطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحراً في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث ومعرفة فنونه، فقيهاً عليماً بالإجماع والاختلاف..".[1].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك والأمراء والعلماء والفقراء، ومن سائر صنوف بني آدم، وأقل ما كان يجتمع في مجلس وعظه عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مائة ألف أو يزيدون"[2].

وفاته: توفي في رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة (597هـ) بالجانب الغربي من مدينة السلام، وله من العمر سبع وثمانون سنة.

المطلب الثاني: التعريف بالخطابة والوعظ، وأنواعهما

أولاً: تعريف الخطابة.

قال الأزهري: "الخطْبَةَ: اسمٌ للكلام الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر "[3]. والخُطبة عند العرب هي الكلام المنثور المسجّع ونحوه[4].

- وأما في الاصطلاح العام، فقيل في تعريفها:
- "هي قوة تتكلّف الإقناع الممكن في كلّ واحد من الأشياء المفردة"[5].
- وعرّفها بعضهم بأنها: "فن مشافهة الجمهور للتأثير عليهم واستمالتهم"[6].
- وعرَّف بعض المعاصرين الخطابة: "بأنها فنّ من فنون الكلام، يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معا [7].
- وعرّفت الخطابة الوعظية بأنها:

"هي قياس مركّب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه، والغرض منها ترغيب

---

(1) السير (367/21).

(2) "البداية والنهاية" لابن كثير 32/13.

(3) تهذيب اللغة 111/7، مادة "خطب"، ومختار الصحاح، ص 196، مادة "خطب".

(4) انظر: لسان العرب مادة "خطب" 361/1.

(5) تلخيص الخطابة لابن رشد، ص 24.

(6) انظر: قواعد الخطابة، د. أحمد غلوش، ص 8.

(7) الخطابة في الإسلام للدكتور مصلح سيد بيومي ص (11).

الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم، ومعادهم، كما يفعله الخطباء والوعّاظ"[1].

وبهذا فإن "الخطابة الدينيّة" تعدّ في عرف الناس لوناً من ألوان الوعظ.

وقيل: "الخطبة في المتعارف اسم لما يشتمل على تحميد الله والثناء عليه، والصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والدعاء للمسلمين، والوعظ والتذكير لهم"[2].

وعليه: فالخطابة علم له قواعد وأصول وأساليب وضوابط، لا بدّ من تعلّمها ثم التمرّس عليها والتعوّد، يؤازر ذلك المقدرة النفسية، والموهبة الإلهية.

ثانياً: تعريف الوعظ

"المَوْعظَةُ: تذكرتك الإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب"[3].

وفي التعريفات: "الموعظة هي التي تلين القلوب القاسية، وتُدمِع العيون الجامدة، وتُصلِح الأعمال الفاسدة"[4].

والخطب من أساليب الوعظ، وسمّيت خطبة الجمعة موعظة لأنّه يغلب عليها الوعظ والإرشاد.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبِ امْرَأَتِهِ إِنْ كَانَ لَهَا، وَلَبِسَ مِنْ صَالِحِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ لَمْ يَتَخَطَّ رِقَابَ النَّاسِ وَلَمْ يَلْغُ عِنْدَ الْمَوْعِظَةِ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهُمَا....**»[5].

وبهذا فإن "الخطابة الدينيّة" تعدّ في عرف الناس لوناً من ألوان الوعظ.

يقول علي محفوظ رحمه الله: "وقد يطلق الوعظ والإرشاد في عرف الخطباء والأدباء على الخطابة الدينية، سواء أكانت تعليمية لبيان المسائل الشرعية، أو العلميّة، أو الخلقيّة، أم تأديبية لإيقاظ الناس من غفلتهم بالتذكير والإنذار"[6].

المطلب الثالث: أنواع الخطابة

قسم بعض الباحثين أنواع الخطب في الإسلام إلى ستة أنواع، وهي:

1 – الخطب الوعظية: وركيزتها الموعظة الحسنة والتذكير بالله وبيان أحكام الشريعة وتقوية

---

(1) "التعريفات" ص 99.

(2) بدائع الصنائع 262/1.

(3) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده مادة : "وعظ" (240/2)، وكذا المخصص له، مادة :"وعظ": (95/4)، وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، مادة :"وعظ" 289/20–290.

(4) التعريفات للجرجاني: (305/1).

(5) رواه أبوداود (95/1)، كتاب: الطهارة، باب: الغسل يوم الجمعة، رقم: (347).

(6) هداية المرشدين ص 99.

الإيمان ومنها خطب الجمعة.

2 – الخطب الاجتماعية: موضوعها النكاح أو خطبة النساء.

3 – الخطب الحفلية: وهي التي تلقى في المحافل العامة وأغراضها التكريم أو التهنئة أو علاج مشكلة معينة ونحو ذلك.

4 – الخطب القضائية: وتكون في المحاكم والدوائر القضائية يتولاها الخصوم والمحامون والنواب ونحوهم.

5 – الخطب الجهادية: وتلقى في ميادين القتال ويتولاها القادة غالبا حيث يرغبون الجنود في القتال ويبينون لهم منازل الشهداء وما أعد الله لهم من الكرامة.

6 – الخطب السياسية: ويلقيها في الغالب الزعماء والسادة في المجالس النيابية والشورية ولها أغراض متنوعة [1].

وهذه الأقسام الستة داخلة في نطاق الشرع وليس بينها تغاير ولا تضاد فالشريعة الإسلامية – بحمد الله – متضمنة كل شيء، والذي يعنينا في المقام الأوّل هو: الخطب الوعظية، إذ هي ركيزة الدعوة، وأساس بلاغ هذا الدين، وهي لسان خطاب المرسلين.

وللخطابة الوعظية أنواع وأصناف، يمكن تقسيمها إلى أصناف، وهي:

أولاً: الخطب الدورية

1– الخطبة المشروعة الدورية الأسبوعية، وهي خطبة الجمعة:

ودليل مشروعيتها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت والإمام يخطب فقد لغوت"[2].

2– الخطب الدورية السنوية:

أ– خطبة العيدين: وقد وردت نصوص كثيرة تدل على مشروعيتها ومنها:

1– حديث جابر رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام يوم الفطر فصلى، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، ثم خطب الناس"[3].

2– خطبة عرفة: ودليل مشروعية هذه الخطبة حديث جابر رضي الله عنه الطويل، وفيه: حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، حتى زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى

---

(1) انظر: الدراسة النظرية للخطابة ، لعبد الرب نواب الدين، ص15.

(2) البخاري في كاب الجمعة، باب: الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب [934]، ومسلم في كتاب الجمعة، باب: في الإنصات يوم الجمعة في الخطبة [851]

(3) أخرجه مسلم في كتاب صلاة العيدين (603/2) [885]

بطن الوادي، فخطب الناس...."[1].

3 – خطبة يوم النحر: ودليل مشروعيتها: عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر[2].

ثانياً: الخطب المشروعة الطارئة

1– خطبة الكسوف والخسوف: وقد بوّب البخاري في صحيحه فقال: "باب خطبة الإمام في الكسوف"، وذكر تحته: "وقالت عائشة وأسماء: خطب النبي صلى الله عليه وسلم"، ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها ، وفيه: ثم قام فأثنى على الله بما هو أهله[3].

2– خطبة الاستسقاء: ودليلها حديث عبد الله بن زيد قال: "خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء فخطب واستقبل القبلة، ودعا واستسقى، وحول رداءه، وصلى بهم"(4).

ثالثاً: الخطب المشروعة العامة.

وهي خُطبة النكاح: يستحب لمن يخطب أو يعقد النكاح أن يخطب بين يدي خطبته أو عقده خُطبة الحاجة المشهورة.

المطلب الرابع: أهمية الوعظ والخطابة

لا شك أن للخطبة الوعظية مكانة سامية وأهمية بالغة وذلك لأمور كثيرة منها :

1 – أنها من أساليب نشر الدعوة العامة حيث لا تختص بأحد دون أحد، ولا طبقة دون طبقة، فجميع المصلين يستمعون إليها من الخطيب من كان منهم قوي الإيمان أو ضعيفه، ومن كان منهم ذا ثقافة أو عديمها والكبير والصغير فهي فرصة للخطيب متكررة يستطيع بها التأثير على هذه الأعداد الهائلة الذي سيحضرون باختيارهم راغبين غير مكرهين[5].

2 – وتكرار الخطبة كل أسبوع يدل على أهميتها وضرورة العناية بها من قبل الخطيب والسامعين حيث يستمع المصلي في العام الواحد لأكثر من خمسين خطبة تقريبا. فلو أن كل خطيب يعالج في كل سنة (50) موضوعا ما بقي بين المسلمين جاهل في الأحكام الضرورية.

3 – الحاضرون والمستمعون للخطبة يزيدون ولا ينقصون بخلاف غيرها من أساليب الدعوة الأخرى أو

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، (2/886-892) [1218]

(2) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب: الخطبة أيام منى (1/401) [1739]

(3) البخاري (3/232-233 . الفتح .).

(4) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، جماع أبواب صلاة الاستسقاء وما فيها من السنن، باب: الخطبة قبل صلاة الاستسقاء (2/332) [1407]. وصحح إسناده الألباني في تعليقه على صحيح ابن خزيمة [1407].

(5) انظر: "إرشادات لتحسين خطبة الجمعة"، لمحمد أبو فارس: ص31.

المستجدات العصرية كالمحاضرة والدرس والندوة، مثلا فقد يخرج البعض قبل اكتمال الموضوع، ففرق شاسع بينها وبين وسائل الدعوة الأخرى مما يدل على أهميتها.

4 – الخطبة ثابتة ومستمرة في كافة الأحوال في السلم والحرب والأمن والخوف، وتوفر الخيرات والجدب فهي مطلوبة في سائر الظروف والأحوال.

5 – لما لخطبة الجمعة من أهمية بالغة على سلوك الناس وتعاملهم فقد اهتم بها الإسلام ووردت نصوص كثيرة في السنة المطهرة تدور حول الخطبة.

كما اهتم بها الفقهاء اهتماما بالغا حيث أولوا أحكامها وآدابها وعلاقتها بصلاة الجمعة عناية تامة[1].

6– الاتصال المباشر بين الخطيب والمخاطبين، الأمر الذي يفتقد في كثير من الوسائل الأخرى، ولا ريب أن هذا الاتصال المباشر أعظم تأثيرا في النفوس لقراءة الإنسان من قريب الانفعالات العاطفية والوجدانية التي تحدث لدى الخطيب فيكون أكثر تأثرا بها، ولما تحدثه المباشرة من المشافهة، والسؤال، والحياء، والمخاطبة.

7– تأثير الخطيب في سامعيه ليس بالإلزام أو الإفحام، بل مرده إلى إثارة العاطفة، وحملهم على الإذعان والتسليم.

8– تعدّ الخطابة الوعظية ضرورة أكيدة لحفظ الدين واستمراره وسلامة شرائعه ومبادئه، وإهمالها يؤذن بزواله واندراسه وضعفه واندثاره، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**الدين النصيحة**"[2]، فجعلها الدين كلّه، قال المناوي: "قال غير واحد من العلماء هذا "الحديث" ربع الإسلام"[3]، قال النووي: "بل المدار عليه وحده"[4].

9– الخطابة الوعظية من أجلّ العبادات وأفضل القربات، قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فإنّ أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه"[5].

وقد سئل عبد الله بن المبارك[6] رحمه الله: "أي الأعمال أفضل؟ قال: النصح لله"[1].

---

(1) انظر: (حتى نستفيد من خطبة الجمعة) مجلة البيان – عدد 65 ، ص18، لمحمد بن عبد الله الدويش

(2) متفق عليه، البخاري (31/1) كتاب الإيمان، باب الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، رقم: (55)، ومسلم 74/1، كتاب الإيمان، باب: بيان أنّ الدين النصيحة، رقم: (83).

(3) فيض القدير للمناوي 555/3.

(4) شرح صحيح مسلم 37/1.

(5) مجموع الفتاوى 615/28.

(6) عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي، الإمام شيخ الإسلام عالم زمانه وأمير الحديث في

10- الموعظة وسيلة من وسائل محاصرة الفساد، ومنع انتشاره واستفحاله.

قال الغزالي رحمه الله: "كم من مبتعدٍ عن الجادّة، تكفيه في العودة إليها نصيحة ناصح، أو وصية زاجر، فإذا هو راجع إلى رشاده"[2].

11- وعموم الخلق ينتفعون بالخطبة، خاصة العوام، "لذا تجد في الناس استعداداً لسماعها والإنصات إليها، والجلوس حول الخطيب بدون ضجر أو ملل، مع ما في ذلك من تعطيل لكثير من مصالحهم الدنيوية، وهذا كلّه راجع لما في الخطبة من خير وبشرى للناس، وأخذ بأيديهم إلى طريق الحق والصواب، وهداية لمنافع الدنيا والآخرة"[3].

3.المبحث الثاني: أنواع الموعظة والخطابة عند ابن الجوزي، (مع دراسة نماذج منها).

لقد جال الإمام ابن الجوزي رحمه الله بلسانه وبنانه في ميادين الوعظ والخطابة والتذكير، فقلما تجد لوناً أو نوعاً من أنواع الخطابة الوعظية، إلاّ ولابن الجوزي فيه يداً طُولى.

ويمكن تقسيم الخطابة الوعظية عند ابن الجوزي، بحسب تنّوع مواضيعها إلى ثلاثة أقسام، بحسب التنوّع الموضوعي لعلوم الدين عقيدة وشريعة وأخلاقاً.

أولاً: الخطب والمواعظ العقدية

شغلت مسائل العقيدة والإيمان حيّزاً لا بأس به من خطب الإمام ابن الجوزي رحمه الله، وقد حفظت لنا كتبه الوعظية كثيراً من درر هذه المواعظ التي يؤكّد فيها على وجوب إفراد الله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وكذا سائر مسائل الإيمان الأخرى، كالإيمان بالغيب، والقضاء والقدر، وغيرها من شعب الإيمان، ومن أمثلتها:

- نصّ الخطبة والموعظة:

قال ابن الجوزي رحمه الله: "يا أصحاب الأسماع الواعية، والعقول الصاحية، الله هو الموجود الذي استغنى عن إيجاد، هو الواحد الذي لا يفتقر توحيده إلى توحيد موحِّد، الله هو الأول الذي ليس لأوليته أول، والآخر ليس لآخريته آخر، الله الذي كلما ظهر فهو باطن، وكلما بطن فهو ظاهر، الله الأحد الذي لم يكن له كفوا أحد، والصمد الذي كل من سواه إليه صمد.

كل معبود تحت عرشه باطل، وكل ظل تحت ظله زائل، مستغن عما سواه، وكل ما سواه إليه فقير،

في وقته، الحافظ الغازي أحد الأعلام، صاحب التصانيف والرحلات، توفي سنة (181هـ)، سير أعلام النبلاء 387/8.

(1) "جامع العلوم والحكم لابن رجب" الحنبلي 225/1.

(2) نقلاً عن كتاب: "الرائد، دروس في التربية والدعوة" لمازن بن عبد الكريم الفريح 16/4.

(3) وسائل الدعوة، للمغذوي، ص:72.

يجير على كل أحد وما أحد يجير عليه.

هو القاهر فوق عباده إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، لا يتأخر عن مراده، لا تدركه الأبصار، ولا تحويه الأقطار، ولا تشمله الأفكار.

كل الخلائق عن إدراكه قاصرون، وفي تيه معرفته حائرون، له مقاليد السموات والأرض، وبيده البسط والقبض، والرفع والخفض، نصب الجبال فأرساها، وفجّر المياه وأجراها، وسمك[1] السماء وأعلاها، ووضع الأرض ودحاها[2]، وسخر الشمس والقمر دائبين، وجعل الليل والنهار متعاقبين، الملائكة من خشيته مشفقون، والرسل من هيبته مطرقون، والجبابرة لعظمته صاغرون، وله من في السموات والأرض كل له قانتون.

سبحان الله كما هو أهله تبارك الله وتعالى جدّه، كيف يحيط المخلوق بوصف خالقه، متى يقوم المرزوق بشكر رازقه، تعالى الله عن قول من يقول في القرآن فلا تحيط به دائرة عقله، ستكتب شهادتهم ويسألون، يوم لا ينفع الظالمون معذرتهم ولا هم يستعتبون.

لو أردنا وأراد أغزرنا عقلا أن يصف نفسه التي بين جنبيه ببعض ما جبلها الله عليه، لخرس لسانه، وخرّ جنانه، ولم يهتد في وصفها إلى صواب، إلا أن يتمسك بالسنة والكتاب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، وليحذر المجادل في ذات الله بغير علم يوما يسأل فيه القائل، ويجازى فيه العامل، قال الله عز من قائل ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢ – ٩٣].

يسأل الله تعالى في ذلك اليوم الموعود لم خدش العود، فكيف لا يسأل المخالفين في معتقدات أصول الدين عما خالفوه في إجماع المسلمين، والله لو أن مؤمنا عاقلا قرأ سورة الحديد وآخر سورة الحشر وآية الكرسي وسورة الإخلاص بتفكير وتدبر، لتصدع من خشية الله قلبه، وتحير في عظمة الله لبه"[3].

ـ موضوع الخطبة:

يقرر ابن الجوزي رحمه الله في خطبته هذه، وحدانية الله عز وجل، وتفرّده بالخلق والأمر والتدبير، مستدلاً على ذلك بالحجج العقلية المبنيّة على عظمة الخلق، وعجز المخلوق، ومثنياً هذا البيان بإيضاح سوء عاقبة المخالفين والمنحرفين عن توحيد ربّ العالمين.

---

(1) سمك السماء: أي رفعها، الصحاح في اللغة، للجوهري 331/1.

(2) الدَّحْو والدَّحْيُ هو: البسط والمدّ بتسوية ، تفسير ابن كثير 584/30.

(3) التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي، ص 73.

ـ منهج ابن الجوزي في خطبته:

1- استهلّ ابن الجوزي رحمه الله خطبته وموعظته بنداء إلى أصحاب العقول، ليشدّ الانتباه ويحفّز الألباب إلى التفكّر في خطبته ومقاله، وهذا من براعة الاستهلال.

2- كثيراً ما يسوغ ابن الجوزي رحمه الله كلامه على نسق آي القرآن، حتى يكون لكلامه وقع في القلوب والأذهان، كقوله: "له مقاليد السموات والأرض، وبيده البسط والقبض، والرفع والخفض، نصب الجبال فأرساها، وفجّر المياه وأجراها، وسمك السماء وأعلاها، ووضع الأرض ودحاها، وسخر الشمس والقمر دائبين، وجعل الليل والنهار متعاقبين، الملائكة من خشيته مشفقون".

3- أتت خطبة ابن الجوزي وموعظته مقتضبة، ليس فيها تباين وفواصل بين عناصرها، بحيث لا تكاد تميّز بين المقدمة والموضوع والخاتمة.

4- غلّب ابن الجوزي أسلوب الترهيب في موعظته، حيث حذّر المخالف في أصول الاعتقاد من مغبّة مخالفته، كما في قوله: " يسأل الله تعالى في ذلك اليوم الموعود لم خدش العود، فكيف لا يسأل المخالفين في معتقدات أصول الدين عما خالفوه في إجماع المسلمين". وهذا موافق لمقام الخطاب، لكثرة وقوع المخالفة في هذا الأصل.

5- أكثر ابن الجوزي من المحسنات البديعية كالسجع، والكناية، والجناس.

ثانياً: الخطب والمواعظ الشرعية.

إنّ الأحكام الشرعية دائرة بين الأمر والنهي؛ أمر بالطاعات ونهي عن المحرّمات، ولذا كثيراً ما تقرن الأوامر بالمرغّبات، والنواهي بالمرهّبات، إذ أنّ أكثر النفوس لا تتحرّك عزائمها إقبالاً وإحجاماً إلا تحت حادي المرغوب وسوط المرهوب.

والإمام ابن الجوزي رحمه الله اهتمّ بهذا الجانب غاية الاهتمام، مولياً أركان الإسلام غاية قصوى، مبيّناً شروطها وأركانها، ومرغباً في فضائلها وعظم أجرها.

كما أبان رحمه الله عن قبح المعاصي والمنكرات الظاهرة والباطنة، موضحاً عواقبها، وسوء منقلب أصحابها، مستعيناً بالزواجر والقوارع الشرعية، ومن نماذجها:

ـ نصّ الخطبة والموعظة:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أيها الغافل عن الثواب الكثير، والساهي عن الملك الكبير، واللاهي عن لباس السندس والحرير، المتقاعد عن اليوم العبوس القمطرير، النائم عما أتى به محمد البشير النذير، الذي أنقذنا الله به من جهنم وحر السعير.

يا غافل يا ساهي أتاك شهر رمضان المتضمن للرحمة والغفران، وأنت مصرّ على الذنوب والعصيان، مقيم على الآثام والعدوان، متمادي في الجهالة والطغيان، متّكل بالغيبة والبهتان، متعرّض لسخط الرحمن، قد تمكن من قلبك الشيطان، فألقى فيه الغفلة والنسيان، فأنساك نعيم الخلد والجنان، فظللت تعمل أعمال أهل النيران.

فإن كنت يا مسكين كذلك فكيف ترجو الفوز بالرضوان، والحلول في دار الخلد والأمان، والخلاص من دار العقوبة والهوان.

وأنت مطعمك حرام ولباسك حرام، ولسانك لا يفتر عن قبيح الكلام، وبصرك حديد إلى ما حرم من الحرام عليك ذو الجلال والإكرام، ويدك ممدودة إلى ما نهاك عنه الملك العلام، وقدمك تسعى إلى ما هو إثم وحرام، وأنت في جميع أمورك وأفعالك مخالف للقرآن والأحكام، تارك لسنة محمد عليه الصلاة والسلام.

فجسمك من الجوع متعوب من الفجر إلى الغروب، ويلحقك النصب واللّغوب، وصومك عن مولاك بالطرد محجوب، وأخاف أن تكون في النار على وجهك مكبوب، لمخالفتك لعلام الغيوب.

فخمّص[1] ويحك بطنك عن أكل الربا والحرام، وأحبس لسانك عن الوقوع في جماعة الإسلام، وغضّ طرفك عما هو عليك أعظم من أعظم الآثام، وهو النظر إلى ما لا يحل لك من حُرَم الأنام، وامتثل ما أمرك به أحكم الحكام، وقم بين يديه في الليل البهيم إذا هجع النوّام، وتضرع إليه إذا أدهم الليل بداجي الظلام.

وحينئذ يصحّ لك القبول لشهر رمضان، وتفوز بالنعيم الأبدي في دار السلام، وتنجو من الأهوال والعذاب الغرام.

فليكن ويحك بصرك من النظر إلى المحارم معدولاً، وسمعك عن سماع القبيح من القول معزولا، وبطنك من أكل الحرام محمولا، وقلبك بالفكرة في الحسنات والمعاد مشغولا، وذكر مولاك وسيدك في لسانك مجعولا، ومالك في طاعة العزيز الجبار مبذولا ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦] ، وقد أعلمك مولاك أن الشيطان كان للإنسان خذولا، فلم خنت عهد مولاك وأمانته وكنت لنفسك ظلوما جهولا"[2].

ـ موضوع الخطبة والموعظة:

الخطبة فيها بيان لفضل صيام شهر رمضان، وتوضيح لحقيقة الصيام بصيام اللسان والجوارح عن

(1) المَخْمَصَةُ: المَجاعَةُ، الصحاح 188/1.

(2) بستان الواعظين ورياض السامعين، ص 198.

الآثام، وأكل الحرام.

ـ منهج ابن الجوزي في خطبته وموعظته:

1- استهلّ ابن الجوزي خطبته وموعظته بآية من كتاب الله جامعة، وهي كالمقدّمة للخطبة، وهذا مسلك قويم في الخطب والمواعظ، لأن كلام الله جامع للمعاني بأخصر عبارة وألطف إشارة.

2- يخاطب ابن الجوزي عموم المدعوين في خطبته وموعظته باستخدام أدوات النداء، كقوله: "يا غافل" حتى يشدّ الانتباه، ويصرف الأذهان إلى استماع الخطاب وتفهّمه، فيشعر السامع أنه هو المخاطب والمعني دون غيره.

3- يعقد ابن الجوزي في خطبته وموعظته مقارنة بين عمل أهل الغفلات، ورجاؤهم في المغفرة والجنان، ليبيّن أن هذا أعظم الغبن والخسران، وأسلوب المقابلة يظهر الفوارق بين النقيضين والمتقابلين، وهو أسلوب قرآني حيث يكثر المولى جل وعلا من عطف المتغايرات.

4- وكعادة ابن الجوزي في خطابته، يسوق كثيرا منها مساق كلام النبي صلى الله عليه وسلم، مستلاً للمعاني وموظفا للألفاظ، وهذا شأن كل خطيب أشرب قلبه بحديث النبي العدنان، كما في قوله: " وأنت مطعمك حرام ولباسك حرام، ولسانك لا يفتر عن قبيح الكلام، وبصرك حديد إلى ما حرم من الحرام عليك ذو الجلال والإكرام .... فليكن ويحك بصرك من النظر إلى المحارم معدولاً، وسمعك عن سماع القبيح من القول معزولا، وبطنك من أكل الحرام محمولا، وقلبك بالفكرة في الحسنات والمعاد مشغولا، وذكر مولاك وسيدك في لسانك مجعولا".

4- يبيّن ابن الجوزي في خطبته وموعظته حقيقة الصيام، بصيام الجوارح والقلب عن الآثام.

ثالثاً: الخطب والمواعظ الأخلاقية.

إنّ الخلق الفاضل، والسلوك القويم، هو أساس ترابط الأمّة وتماسكها، وصلاح القلوب ونقائها، وما خلت نفس من هذه الفضائل الخلقية إلا غدت نفساً بهيمية شهوانية سبعية، وما عدمت أمة السلوك القويم إلاّ غدت مسبّة الدهر، وفي مؤخّرة الركب.

وقد أولى ابن الجوزي رحمه الله جانب الأخلاق والسلوك اهتماماً بالغاً، مرغباً في فضيلها ومرهباً عن سيّئها؛ يستوي في ذلك الخلق الظاهر، والباطن.

وكذا جانب الرقائق والزهديات، حظيت بحيز واسع في خطب ابن الجوزي ومواعظه، إذ كثيراً ما يوشّح خطبه بحلل الرقائق ليفتح بها مغاليق القلوب، ويقرع بها صمّ الآذان.

وأحياناً يفرد هذا اللون من الخطابة والوعظ بخطب ومواعظ مستقلّة، لعظيم أهميتها، وعمق تأثيرها، ومن أمثلتها:

ـ نصّ الخطبة والموعظة:

قال ابن الجوزي رحمه الله: "إخواني ارفضوا الدنيا فقد رفضت من كان أشغف بها منكم، اتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم، الدنيا خمر ساعدها تغريد طائر الطبع فاشتد سكر الشاربين ففات موسم الربح، ثم بعد الإفاقة يقام الحد، فيقيم قائم الحزن، ويكفي في الضرب فوت الخير فإذا ماتوا انتبهوا.

ويحك، إن الموت سحاب، والشيب وبله[1]، ومن بلغ السبعين اشتكى من غير علة، والعاقل من أصبح على وجل من قرب الأجل، يا هذا: الدنيا وراءك، والأخرى أمامك، والطلب لما وراء هزيمة، وإنما العزيمة في الإقدام، جاء طوفان الموت فاركب سفن التقى، ولا ترافق " كنعان " الأمل، ويحك، انتبه لاغتنام عمرك، فكم يعيش الحيوان حيران؟.

الأسقام تزعج الأبدان فلا بد من النحول ضرورة، كأنك بك في لحدك على فراش الندم، وإنه والله لأخشن من الجندل[2]، فازرع في ربيع حياتك قبل جدوبة أرض شخصك، وادخر من وقت قدرتك قبل زمان عجزك، وأعتد رحلك قبل رحيلك مخافة الفقر في القفر، الحذار الحذار (أَن تَقولَ نَفسٌ يا حَسرَتى).

الحازم يتزود لما به، قبل أن يصير لمآبه، شجرة الحزم أصلها إحكام النظر، وفروعها المشاورة في المشكل، وثمرتها انتهاز الفرص، وكفى بذهاب الفرصة ندما.

وَكَم فُرصَةٍ فاتَت فَأَصبَحَ رَبُّها... يَعُضُ عَلَيها الكَفَّ أَو يَقرَعِ السِّنا.

واعجبا؟ لمضيع العمر في التواني، فإذا جاء متقاضي الروح قال (إِنّي تُبتُ الآن) (وَأَنّى لَهُم التَناوُش مِن مَكانٍ بَعيد)[3].

ـ موضوع الخطبة والموعظة:

تتناول هذه الخطبة خلق العزم والحزم، والمبادرة والمسارعة إلى الخيرات والطاعات، قبل هجوم الأسقام وهادم اللذات.

---

(1) الوَبْلُ والوابِلُ: المطر الشديد الضَّخْم القطْرِ، لسان العرب 718/11.

(2) الجَنْدَل: الحِجَارة، لسان العرب 128/11.

(3) اللطائف، ص 7.

ـ منهج ابن الجوزي في خطبته وموعظته:

1- ساق ابن الجوزي خطبته وموعظته مساق الأمثال، وهذا منهج عجيبٌ لا يستطيعه إلاّ من رسخت قدمه في الوعظ والتذكير، إنّ الأمثال لها وقع كبير في النفوس، وتأثير بالغ على القلوب والعقول، ولهذا نجد النفوس تستأنس بالمثل، ويقع منها حسن موقع، وتقبله فضل قبول، وتطمئن به اطمئناناً، فهي أسلوب فعّال يستطيع الواعظ من خلاله التأثير في الموعوظين ترغيباً وترهيباً، حثاً وزجراً[1].

وفي ذلك يقول الماوردي رحمه الله: "وللأمثال من الكلام موقع في الأسماع، وتأثير في القلوب، لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها، لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة[2]، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة"[3].

2- نوّع ابن الجوزي في خطبته وموعظته مسالك الاستشهاد بين آي القرآن وشواهد الشعر، مما يجعل الخطبة والموعظة غاية في الأصالة والاستدلال.

□

(1) "زهر الأكم في الأمثال والحكم"، للحسن اليوسي 31/1.
(2) أي مقبلة محبة، مأخوذ من قولهم: "وَمِقَه يمقه -بكسر الميم فيهما- أحبه"، مختار الصحاح، مادة: "ومق" 307/1.
(3) "أدب الدنيا والدين"، ص 275.

4.المبحث الثالث: خصائص الخطابة والوعظ عند ابن الجوزي.

تتميّز الخطابة والوعظ عامّة، وعند ابن الجوزي خاصّة، بخصائص ومميزات في شكلها، وأسلوبها، وآدابها، ومضمونها، تتفرَّد بها عن سائر أساليب الدعوة الأخرى، ولا يُتَصَوَّر قيام الخطابة إلا بها.

ويمكن تقسيم هذه الخصائص إلى نوعين:

1- خصائص بيانية ومنهجية 2- خصائص موضوعية.

أولاً: الخصائص البيانيّة والمنهجيّة للخطابة والوعظ عند ابن الجوزي:

"إنّ حاجة المنطق إلى الحلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وإن ذلك من أكثر ما تُستمال به القلوب وتُثْنَى به الأعناق، وتزيَّن به المعاني"[1].

والمتأمّل في خطب ابن الجوزي رحمه الله ومواعظه، وما بثّه في كتبه الوعظية والخطابية من نصائح للوعّاظ والخطباء، يجد تلميحاً وتصريحاً إلى ضرورة الاعتناء بالجانب البياني للخطابة، ومن أبرز هذه الخصائص البيانيّة، التي تزيد الخطابة بهاء، ووضوحاً، وتأثيراً ما يلي:

1ـ القوّة البيانية:

إنّ الخطيب والواعظ يعبّر عما يجيش في نفسه بأبلغ عبارة وأوفاها، بعيداً عن التكلّف والتنطّع، فهو ينطق عفو الخاطر، يمازج في أسلوبه بين الخبر والإنشاء، ويحوّر أسلوبه وفق ما يراه من إقبال السامعين أو فتورهم، ويزيّن منطقه بالفصاحة والجزالة.

ومن استجمع الفصاحة والبيان استحوذ على القلوب، واستولى على العقول، وأثَّر في النفوس أيما تأثير، ولذا جاء في حديث عمار رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: "... **وإنّ من البيان سحراً**"[2].

"وفي الحديث مدحٌ للبيان، لأنّ الله تعالى امتن على عباده بتعليمهم البيان، وشبهه بالسحر، لميل القلوب إليه"[3].

وقد أمر الله عز وجل رسوله الكريم والدعاة من بعده، بعظة الناس بالقول البليغ الفصيح، قال تعالى: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣].

•**واستحب الإمام ابن الجوزي** رحمه الله البيان والفصاحة في الخطب والمواعظ، ويشهد بذلك خطبه الكثيرة، التي تنبئ عن رسوخه في البلاغة والبيان، وإشادته بالفصاحة، واستحسنها في مقام الوعظ.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "وأحوج الناس إلى البلاغة الواعظ – والخطيب– ليجمع مطالبهم، لكنه

---

(1) البيان والتبيين، للجاحظ 14/1.

(2) رواه مسلم 594/2، كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم 1437.

(3) شرح صحيح مسلم 157/6.

ينبغي أن ينظر في اللازم الواجب، وأن يعطيهم من المباح في اللفظ قدر الملح في الطعام، ثم يجتذبهم إلى العزائم ويعرفهم الطريق الحق"[1].

ومن شأن هذا الأمر أن يستجلب مسامع الموعوظين، ويؤثّر فيهم غاية التأثير، لأنّ القلوب تكون مقبلة على سماع الخطبة، مشتهية لها، محيطة بمراميها ومقاصدها.

قال ابن الجوزي رحمه الله في أثر البلاغة والفصاحة على الخطابة: "إن كانت –للخطيب– صناعة في إنشاء الخطبة، أو كان يحفظ خطبة فيذكرها ولا بأس.

فإن الكلام المستحسن له وقع في النفوس، ولا يلتفت إلى متزهد جاهل يقول: هذا تصنّع، فإن التصنع المباح لاستجلاب القلوب لا يذم وقد كان لرسول الله خطيب فصيح يقال له ثابت بن قيس وشاعر هو حسان، فإذا جاءه خطيب أو شاعر من قبل المشركين قاوماه.

ولو أن واعظا قال الحمد لله واقتصر على هذا في الخطبة ثم قال اتقوا الله واقتصر على إعادة هذه الكلمة لم يقع قوله موقع من يأتي بالكلام المستحسن واللفظ الرائع.

ومن تأمل القرآن وما فيه من الكناية والتجوز والاستعارة عرف موقع الفصاحة من القلوب"[2].

قال ابن رجب رحمه الله: "والبلاغة في الموعظة مستحسنة، لأنها أقرب إلى قبول القلوب واستجلابها، والبلاغة: هي التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة، وإيصالها إلى قلوب السامعين، بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها، وأفصحها وأحلاها لدى الأسماع، وأوقعها في القلوب"[3].

2ـ القصد والتخوّل بالخطبة والموعظة:

إنّ المواعظ بمثابة السياط تقرع بها القلوب الغافلة، والأنفس اللاهية، ومن ثمّ كان التوسط في الوعظ أمرٌ لازم، وإلاّ حصلت نفرة ورغبة عن سماع الذكر.

ولهذا كانت مواعظ النبي صلى الله عليه وسلم وخطبه قصداً، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هن كلمات يسيرات"[4].

وقد فقه ابن الجوزي رحمه الله عنه ذلك، وتأسَّى به، في خطبه ووعظه وتذكيره.

يظهر ذلك من خلال قصده في وعظه وخطبه، وبغضه للإسهاب والتكلّف.

وقد كره ابن الجوزي رحمه الله للخطيب والواعظ أن يطيل الخطبة، لما في ذلك من الإملال

---

(1) "صيد الخاطر" 100/1.

(2) "القصاص والمذكرين" ص 361.

(3) جامع العلوم والحكم 259/1.

(4) رواه أبو داود 289/1، كتاب: الصلاة، باب: إقصار الخطبة، رقم 933، وحسنه الألباني في "صحيح أبي داود" 289/1.

والتثقيل على الناس.

قال رحمه الله: "ولا ينبغي للواعظ – والخطيب– أن يطيل المجلس، فقد قال أحمد بن حنبل: لا أحب للقاص أن يمل الناس فلا يطيل الموعظة إذا وعظ"[1].

ب- التخوّل بالخطبة والموعظة:

إنّ التخوّل بالخطبة والموعظة أدعى للاشتياق إليها، وأحرى لقبولها والانتفاع بها، ولهذا كره ابن الجوزي رحمه الله أن يكثر الواعظ من وعظ أناس بأعيانهم، أو يتابع عليهم الوعظ مراراً قريباً بعضها من بعض، فإنّ النفس شرود، وإنّ كثرة الوعظ تفقده أثره.

ولهذا كان من حكمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في الدعوة أنّه لا يجعل الوعظ ركاماً، بل كان يتحرّى بالموعظة وقت حاجة الناس إليها ووقت نشاطهم لسماعها.

والتخوّل والتعهّد بالموعظة، يشمل أموراً عديدة، تجتمع في غاية واحدة، وهي الترويح عن النفس، وترك السآمة والملل.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "وليقتصر –الخطيب والواعظ– على مجلس واحد في الأسبوع، فإن رأى الهمم متشوقة إلى الزيادة جعلها مجلسين ولا يزيد على هذا"[2].

3- تحديث الناس بما يفقهون، ومراعاة أحوالهم وقدراتهم:

إنّ الخطبة والموعظة لا تؤتي ثمارها، إلاّ إذا كانت واضحة المعالم مفهومة لدى سامعيها، مواكبة لقدراتهم وإدراكهم، وإلاّ صارت مدعاة للاستهجان والتكذيب.

وينبغي تخيّر قدر الكلام وجنسه بحسب حال المستمعين، وممّا ينبغي مراعاته عند تحديث العوام أن لا يكون الحديث في المسائل التي لا تدركها عقولهم، كمسائل القدر، والتعليل، أو ما شجر بين الصحابة، مما قد يساء فهمه.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "من المخاطرات العظيمة تحديث العوام بما لا تحتمله عقولهم، أو بما قد رسخ في نفوسهم ضده"[3].

وقال: "فالله الله أن تحدّث مخلوقاً من العوام بما لا يحتمله، دون احتيال وتلطّف، فإنّه لا يزول ما في نفسه، ويخاطر المحدِّث له بنفسه"[4].

---

(1) القصّاص والمذكرين، ص 369.

(2) القصاص والمذكرين ص369.

(3) "صيد الخاطر"، ص 74.

(4) المصدر السابق، ص 75.

4ـ إنزال الناس منازلهم في الخطاب والوعظ:

ينبغي أن لا يغض الخطيب والواعظ الطرف عن منزلة المدعو ومكانته، لأنّ في ذلك تنقّص من شأنه أن يكون سبباً في ردّ الموعظة وعدم تقبّلها.

فخطاب الخطيب والواعظ للحاكم والأمير مثلاً، لا ينبغي أن يكون كخطابه للعوام والدهماء.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزّل الناس منازلهم**»[1].

أي: "أمرنا أن نعامل كل أحد بما يلائم منصبه في الدين، والعلم، والشرف"[2].

ومن شواهد ذلك أيضاً: الكتاب الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل؛ وفيه: «**من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم.... »**.

وفي ذلك يقول الإمام ابن الجوزي رحمه الله: "...فإن وعظ سلطانا تلطف غاية ما يمكن ولم يواجهه بالخطاب، فإن الملوك إنما اعتزلوا الناس ليبقي جاههم، فإذا ووجهوا بالخطاب رأوا ذلك نقصا، فليذكر الوعظ عاما ليأخذ السلطان منه نصيبا، وقد كان في السلاطين من يواجه بالإنكار فيصبر، وليس ذلك يحرم في الرأي بل التلطف أولى، قال عز وجل: ﴿ **فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا** ﴾ [طه: ٤٤] "[3].

ثانياً: الخصائص الموضوعية للخطابة والوعظ عند ابن الجوزي

إن موضوع الخطبة والموعظة هو لبّها وروحها، وبحسب الموضوع يكون أثر الخطبة والموعظة، والخطيب والواعظ الذي يقدّر سامعيه ويحترمهم ويقدر أوقاتهم ويضن بها أن تضيع في غير فائدة يحرص غاية الحرص على موضوع الخطبة ويجتهد غاية الاجتهاد في أن يكون موضوعها نافعا للناس.

ومن أعظم هذه الخصائص الموضوعية التي نوّه عنها ابن الجوزي[4] هي خصيصة الشموليّة والتنوّع في الخطابة الوعظية.

الشموليّة والتنوّع:

ينبغي للخطيب أن يتلمّس أدواء الناس وحاجاتهم، ولا بد أن لا يغفل شيئاً من أركان الدين وواجباته

---

(1) رواه مسلم في مقدمة صحيحه 6/1، وأبو داود في سننه بلفظ: "أنزلوا الناس منازلهم" ، كتاب: الأدب، باب: في تنزيل الناس منازلهم، رقم: 4202، والحديث حسّنه السخاوي في "المقاصد الحسنة" ص: 163، رقم: 179.

(2) عون المعبود 132/13.

(3) "القصاص والمذكرين، ص 368-369.

(4) ثمة خصائص موضوعية أخرى للخطابة، كحسن اختيار الموضوع، والواقعية، ووحدة الموضوع وترابطه، وغيرها من الخصائص التي ضربت صفحاً عن ذكرها لأني لم أظفر لابن الجوزي كلاماً فيها.

ومستحباته، يجول في كلّ ذلك بمنطقه ولسانه ونصحه وإرشاده.

ومجالات الخطابة والموعظة بهذا كثيرة جداً، بل إنّ في كل زمان ومكان تستجدّ مجالات في الوعظ، بحسب ما يستجدّ للناس من غفلة وانحراف عن شريعة الله عز وجل، ولكن ثمة محاور رئيسة تدور الخطابة في فلكها مهما امتدت الأزمان وتباعدت الأوطان.

والمتأمل لخطب ومواعظ ابن الجوزي رحمه الله، وكلامه يجده مقتفياً لأثر من سلف في التنوّع والشمولية، وفي ذلك يقول رحمه الله: "....وليدرج –الخطيب– في كلامه أخبار الوعد والوعيد والتشويق إلى الجنة والتحذير من النار وليأمر بالمحافظة على الصلاة وينهى عن التواني عنها وليحث على الزكاة ويذكر الوعيد لمن فرط فيها وكذلك الحج والصوم وليبالغ في ذكر بر الوالدين وصلة الرحم وفعل المعروف وينهى عن المنكر وأكل الربا ويعلمهم عقود المعاملات وليأمر بإمساك اللسان عن فضول الكلام وغض البصر عن الحرام وليخوف من الزنا ويذكر الأحاديث الواردة في جميع ما ذكرنا ويذكر من حكايات الصالحين ما يصلح ذكره"[1].

ونجده رحمه الله يحذّر من مزال موضوعية وأسلوبية في الخطابة، ومن ذلك:

أ- تقنيط الناس، أو تجرئتهم على المعاصي:

قال رحمه الله: "وكثير من القصاص يملؤون المجلس بالأحاديث التي لا أصل لها كصلاة الرغائب، وصلاة نصف شعبان، وغير ذلك ولا يحثون على الفرائض والواجبات.

وفيهم من يروي أحاديث التخويف الموضوعة إلى أن يقنط الناس من الرحمة، وفيهم من يروي أحاديث الرجاء المصنوعة أو التي لها معنى كقوله: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، ولا يبينون أن هذا كان في بداية الإسلام وأنه لا يكفي القول حتى يعمل بمقتضاه، وفيهم من يورد فضل السنة وأهلها وأن السني ناج مغفور له حتى يظن من يتمسك بالسنة أنه لا يضره ذنب"[2].

ب- الأمر بالزهد والتقشف دون بيان المراد:

قال رحمه الله: "ومن القصاص من يأمر بالزهد في الدنيا ولا يبين المراد، ويدرج في ذلك أخبار المتزهدين ومن خرج من ماله ومن كان يطوي أياما ولا ينام الليل ويهرب من الخلق، فيرى العامة ترك عائلته، ويهرب إلى السياحة، أو ينقطع في المسجد فإن طلبت المرأة فرضها وحكم الحاكم عليه بذلك لعن امرأته وتسخط على الحاكم الذي هو نائب الشرع، ولو أن القاص فهم لأخبرهم أن المذموم فضول الدنيا الشاغلة عن الآخرة، وأن النفقة على الأهل واجبة، ثم إن العوام محتاجون إلى تعريف الفرائض ومن هو مفرط في الصلاة مخل بالواجب في الزكاة متقاعد عن الحج مع الإمكان، وعن قضاء الدين مع الجدة، فأين هو والنوافل.

---

(1)القصاص والمذكرين ص364

(2)القصاص والمذكرين، ص324-325.

ومن القصاص من يذكر في مجلسه ذم الدنيا ويقول فعلت وفعلت، ويبالغ في ذم الدهر وما يفعل بأهله كأنه ما سمع أن رسول الله قال"لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر"، وهذا لأن الزمان لا يفعل إنما هو ظرف"[1].

ج- الإكثار من ذكر الموت، والحث على الجزع دون الصبر:

قال رحمه الله: "ومنهم من يذكر الموت والفراق وتخريق البلى، فيجدد مصائب النساء والضعاف القلوب ويحركهم إلى التسخط بالأقدار، وهذا جمهور ما يقولونه في الأعزية، وهو من المنكرات، وإنما ينبغي أن يؤمر أهل المصائب بالصبر وهم يحثون على الجزع"[2].

5.المبحث الرابع: مصادر الخطابة والوعظ عند ابن الجوزي

تمتاز الخطابة والوعظ عند الإمام ابن الجوزي رحمه الله، بالأثرية والشمولية في مصادرها ومراجعها، فهي مصادر متنوّعة تجمع بين الأصالة والحداثة، وهو ما يزيد الخطابة تأثيراً وحسناً.

ومن أبرز المصادر التي استقى منها الإمام ابن الجوزي رحمه الله خطبه ومواعظه –وحثّ الوعّاظ والخطباء من بعده على ورودها، والنهل من معينها– ما يأتي:

أولاً: القرآن الكريم، وتفسيره

القرآن الكريم هو أول مصادر العلوم الشرعية، ومنها الخطابة الدينية الوعظية، والمتأمل في خطب ابن الجوزي ومواعظه يجده متمسكاً بهذا المصدر؛ يدلّ على ذلك أمور منها:

1– نجد الإمام ابن الجوزي رحمه الله يؤثر كلام الله في وعظه وخطبه على غيره، فلا تكاد تخلو خطبة من آي الكتاب، المشفوعة بالتفسير والتبيان.

ولابن الجوزي منهج فريد في الاستشهاد بآي الكتاب، تتلخّص في الآتي:

- الاستشهاد الصريح: وذلك عن طريق الاستشهاد بنصوص القرآن الكريم:

– إمّا أن يجعل الآيات القرآنية عنواناً وموضوعاً لخطبته، كقوله في كثير من كتبه الوعظية، فصل: في قوله تعالى، ثم يذكر نص الآية، وبعدها يردفها بالتفسير والتفريع..

– أو الاستشهاد بآي القرآن في ثنايا الخطبة، وهذا المسلك جد مشتهر، تقدّم ذكر أمثلة له في أنواع الخطابة عند ابن الجوزي.

- الاستشهاد الضمني: وذلك بأخذ مضمون الآية القرآنية، وصياغتها بأسلوب خطابي، وهو ما سار عليه في أغلب خطبه.

---

(1) المصدر السابق، ص 326.

(2) المصدر السابق.

2- كما نجده يحثّ الخطباء والوعاظ من بعده على النهل من معين القرآن الكريم الصافي النمير، فيقول رحمه الله: "..ومتى كان الواعظ عالما بتفسير القرآن والحديث وسير السلف والفقه، عرف الجادة ولم يخف عليه بدعة من سنة، ودلّه علمه على حسن القصد وصحة النية ومتى كان قاصر العلم طالبا للدنيا لم ينفع غيره وضر نفسه"(1).

وقد استحب الإمام ابن الجوزي أن يستهلّ الخطيب خطبته والواعظ موعظته بآي القرآن الكريم، بل ويجعل محور خطبته على تفسير هذه الآيات.

قال رحمه الله: "فإذا ارتقى المنبر سلم عليهم ولا بأس أن يقرأ من القرآن آيات على وجه الترتيل والتحزين لا على طريق الألحان.

...فإذا أنهى الخطبة والدعاء ذكر تفسير الآيات التي قرئت وأدرج في تفسيرها ما يليق به من ذكر الوجوه والنظائر والأخبار المسندة والحكايات اللائقة بذلك"(2).

ثانياً: السنة النبويّة، وشروحها.

السنّة النبويّة هي المعين والرافد بعد -القرآن الكريم- للخطابة والوعظ عند الإمام ابن الجوزي، وهذا واضح جليٌّ لمن وقف على مواعظه وخطبه، قال رحمه الله: " فإني - بحمد الله - لما كان أكثر اشتغالي بالحديث وعلومه لم يكد يذكر لي حديث إلا ويمكنني أن أقول صحيح أو حسن أو محال ولي في كتبي الوعظية - بحمد الله - أعمال عجز عنها من تقدم"(3).

وأكد ابن الجوزي على ضرورة عناية الخطيب بالحديث، فقال: "ينبغي للواعظ أن يكون حافظاً لحديث رسول الله، عارفاً بصحيحه وسقيمه ومسنده ومقطوعه ومعضله"(4).

وقال في الحثّ على الاعتماد على السنّة في مقام الخطابة والوعظ: "وليكن أكثر اعتماده -أي الخطيب والواعظ- على الأحاديث والمنقولات من أخبار الصالحين"(5).

وقد حذّر ابن الجوزي من إيراد الأحاديث الموضوعة والمكذوبة في الخطب ومجالس الوعظ، وقد حذّر ابن الجوزي من هذا الصنيع أشد التحذير، وعدّ هذا الأمر من العيوب المقيتة التي تشوّه الخطبة والموعظة، وضرب لذلك أمثلة عديدة.

فقال رحمه الله: "وفي القصاص من يسمع الأحاديث الموضوعة فيرويها ولا يعلم أنها كذب فيؤذي بها

---

(1) القصاص والمذكرين ص370.

(2) المصدر السابق، ص 360-363.

(3) المصدر السابق، ص373.

(4) القصاص والمذكرين، ص182.

(5) المصدر السابق، ص372

الناس، وربما سمعها من أفواه العوام فرواها، وربما سمع كلام الحسن أو سري السقطي فقال قال رسول الله، وقد صنف من لا علم له بالنقل كتبا فيها الموضوع والمحال.

فترى القصاص يوردون منها ويزيدون فيها ما يوجب تحسينا لها، وممن صنف لهم في هذا الحارث المحاسبي وأبو طالب المكي وأبو حامد الطوسي فإنهم أدرجوا في كتبهم أحاديث باطلة ولا يعلمون أنها كذب.

وصنف جماعة من الأعاجم كتبا في الوعظ ملؤوها بالأحاديث المحالة والمعاني الفاسدة، وفي التفاسير من هذا كثير قد ذكر منه أبو إسحاق الثعلبي قطعة، فإنه ذكر في قصة ذي الكفل حديث الكفل وأنه كان لا يتورع من معصية، والكفل رجل من فساق بني إسرائيل فأضاف حديثه إلى نبي مرسل"[1].

ثالثاً: سير السلف الصالح رحمهم الله:

كانت خطب المتقدمين من السلف وسيرهم مادة خصبة ومعيناً فيّاضاً، للخطابة عند ابن الجوزي رحمه الله، لذا نجده يحثّ على النقل والاستفادة والاستشهاد بأخبار السلف ومقالاتهم.

قال رحمه الله: "فينبغي للواعظ –والخطيب– أن يكون عالما بالتواريخ، وسير السلف، حافظا لأخبار الزهاد"[2].

وقال أيضاً: "وليكن أكثر اعتماده على الأحاديث والمنقولات من أخبار الصالحين"[3].

وقد أكثر ابن الجوزي وهو –الجامع لأخبار الصالحين من السلف ومقالاتهم، كما في كتابه صفة الصفوة، من الاستشهاد بمقلات وخطب ومواعظ وسير السلف الصالح رحمه الله في خطبه.

رابعاً: القصص

إنّ القصة طريقة من طرق البشارة والإنذار، والهداية والإرشاد، والترغيب والترهيب، وهي إحدى الوسائل الناجحة، والسبل الناجعة، لعرض تعاليم الدعوة سهلة واضحة، فهي تجذب النفوس، وتؤثّر في القلوب، قال تعالى: ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ، أي: يتعظون بالفهم، والتدبّر، فيهتدوا إلى الحقّ والصواب[4].

والنفس البشرية مجبولة على محبة القصص، والميل إليها، وربطها بالواقع المعيش، وهي أكثر تأثيراً من غيرها من الأساليب في الغالب، ولذلك تجد بمجرد سردها تقبل الأسماع إليها، وتنشط النفوس معها، وتتأثر بمضامينها تأثراً عظيماً، فالنفوس مولعة بمتابعة القصة، لاسيما جنس العامة.

---

(1) القصاص والمذكرين، ص309–322.

(2) القصاص والمذكرين، ص182.

(3) المصدر السابق، ص 372.

(4) انظر: التفسير الكبير، للرازي 48/15، وفتح القدير 266/2.

والإمام ابن الجوزي رحمه الله أولى القصص أهمية بالغة، لا سيما في مجال الوعظ والخطابة، تظهر براهين ذلك من خلال ما يأتي:

1- تأليفه كتاباً جامعاً في القصص والقصّاص، وضع فيه الضوابط الشرعية، والشروط المرعية للقصص والتذكير، سمّاه: "القصّاص والمذكّرون".

2- تأليفه كتباً في قصص وأخبار السابقين، على شاكلة الكتب الوعظية والخطابية، مثل كتاب: "التبصرة" الذي أودعه قصص الأنبياء، والأمم السابقة.

3- إيراده الكثير من قصص المتقدمين في ثنايا خطبه ومواعظه، وقد تقدّم شيء منها عند ذكر أنواع الخطابة عند ابن الجوزي.

4- مدحه للقصص في مجال الوعظ والخطابة، وحثّه الخطباء على توشيح خطبهم بالقصص ذات العبر.

قال رحمه الله: "فالقاصّ هو الذي يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها، وذلك القصص وهذا في الغالب عبارة عمن يروي أخبار الماضين، وهذا لا يذم لنفسه لأن في إيراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر وعظة لمزدجر واقتداء بصواب لمتبع، وقد قال الله عز وجل: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣] ، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران: ٦٢] "[1].

خامساً: الشعـــــر

إنّ توشية الخطبة والمواعظ بالأشعار الجميلة الرائقة مما تهتز له النفوس، ويحسن وقعه على الأسماع، خصوصاً إذا كان الاستشهاد مناسباً ملائماً، فيحسن أن تُجَمَّل الخطب أحياناً بما يناسب المقام، ويتَّصل بالموضوع.

ولقد كان لابن الجوزي اليد الطولى في قرض الشعر الزهدي، والاستشهاد بشعر من تقدّمه، ومواعظه وخطبه ملأى بهذا الصنف.

كما نجده يحث الخطباء على الاستشهاد بالشعر في الخطابة فيقول: "ولا بأس أن ينشد –الخطيب– الأبيات الزهديّات فإنّ من الشعر حكمة"[2].

وقد حذّر رحمه الله من إيراد شعر العشق الغزل، مما يحرك الشهوات والأهواء، فقال رحمه الله: "ومن القصاص من يمضي أكثر مجلسه في العشق والمحبة، وإنشاد الغزل الذي يحتوي على وصف المعشوق وجماله وشكوى ألم الفراق، حتى أني سمعت بعض القصاص ينشد على المنبر:

---

(1)القصاص والمذكرين ص159-160.

(2) المصدر السابق، ص 365.

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي ولا تسقني سرا فقد أمكن

قال وسمعته ينشد:

أعانقها والنفس بعد مشوقة إليها وهل بعد العناق تداني

وألثم فاها كي تزول صبابتي فيزداد ما ألقى من الهيمان

ومعلوم أن عامة الحاضرين أجلاف بواطنهم محشوة بالهوى ممتلئة بحب الصور، ولا تخلو المجالس من النساء المستحسنات، ومثل هذا يحرك ما في النفوس"[1].

6.المبحث الرابع: صفات الخطيب والواعظ عند ابن الجوزي

لما كانت الخطابة الوعظية عمل الأنبياء ومقام الأولياء والأصفياء، كان لابد للقائم بها من التحلّي بصفات أساسية، وآداب ضرورية؛ ليكون أهلاً لهذا المقام والعمل.

وقد أورد ابن الجوزي جملة من هذه الصفات، وهي على قسمين: علمية وخلقية.

المطلب الأول: الصفات العلميّة

أ- حاجة الخطابة والوعظ إلى التأصيل العلمي:

يقول ابن جوزي رحمه الله –في هذا المعنى–: "لا ينبغي أن يقصّ على الناس إلاّ العالم المتقن فنون العلم، لأنه يُسأَل عن كلّ فنّ، فإنّ الفقيه إذا تصدّر لم يكد يُسأل عن الحديث، والمحدّث لا يكاد يسأل عن الفقه، والواعظ يُسأل عن كلّ علم، فينبغي أن يكون كاملاً"[2].

فالخطيب والواعظ إذا لم يكن على بصيرة؛ قد يلبس على الناس دينهم، وقد يدعوهم إلى باطل وهو يحسبه حقًّا، ولربما أداه جهله إلى اتِّخاذ أسلوب منفر، كما أنّه قد يشحن خطبته بالأدلة الباطلة الواهية، والموعوظ متى ما اكتشف ذلك زلّت موعظة الواعظ من نفسه، وإن كان مضمون الموعظة حقٌ.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "ومتى كان الواعظ عالماً بتفسير القرآن، والحديث، وسير السلف والفقه، عرف الجادَّة ولم يَخْفَ عليه بدعة من سنّة، ودلّه علمه على حسن القصد، وصحّة النيّة، ومتى كان قاصر العلم، طالباً للدنيا لم ينفع غيره، وضرّ نفسه"[3].

ب- مجالات التأصيل العلمي عند ابن الجوزي.

كان خطباء السلف رحمهم الله ووعاظهم من العلماء والفقهاء[4]، الذين جمعوا شتات العلم، فاتسعت

(1) القصاص والمذكرين، ص 327.

(2) "القصاص والمذكرين"، ص 181.

(3) المصدر السابق، ص 370.

(4) "تلبيس إبليس" ص 151.

مداركهم، وسُدِّدت آراؤهم، وكانوا على بصيرة في دعوتهم.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "كان الوعّاظ في قديم الزمان، علماء فقهاء"[1].

وقد أشار ابن الجوزي رحمه الله إلى العلوم التي ينبغي للخطيب والواعظ إتقانها وحيازتها، متى أراد أن تكون خطبته على نور وبصيرة، وهدى من الله تعالى.

قال رحمه الله: "فينبغي للواعظ –والخطيب– أن يكون حافظاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عارفاً بصحيحه وسقيمه، ومسنده ومقطوعه، ومعضله، عالماً بالتواريخ وسير السلف، حافظاً لأخبار الزهّاد، فقيهاً في دين الله، عالماً بالعربية واللغة، فصيح اللسان..."[2].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "لا ينبغي أن يقصّ على الناس إلاّ العالم المتقن فنون العلوم، لأنّه يُسأل عن كلّ فنّ"[3].

ج: العلوم المتعلّقة بعلم الموعظة والخطابة

الخطابة علمٌ قائمٌ بذاته، يحتاج الخطيب إلى الإحاطة بوسائله، وأساليبه، وطرائقه، وآدابه، ومعرفة حال المدعوين، وغير ذلك من الأمور.

* ومن العلوم المتعلّقة بالخطابة: معرفة الواعظ كيفية إلقاء خطبته على الناس؛ وهذا من العلوم الضرورية التي يجب على الخطيب الإحاطة بها.

1ـ مقام الخطيب والواعظ أثناء خطبته وموعظته:

– الأصل أن تكون الخطبة والموعظة على المنبر، وللخطيب أن يخطب على كرسي أو يجلس على الأرض، أو أن يخطب قائماً، كلّ ذلك وردت به السنة.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "أما المنبر فلا بأس بارتقائه فقد ارتقاه رسول الله، وأما الفرش عليه فلا بأس به فإنه يوجب نوع احترام في النفوس، ألا ترى إلى أهبة الخطيب ودقه المنبر بالسيف فإنه يزعج النفوس فتتأهب لتلقف الإنذار"[4].

2ـ ما يبتدئ به الخطيب والواعظ من الكلام:

– يبدأ الخطيب خطبته والواعظ موعظته بحمد الله والثناء عليه، ثم الصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم، وإن جاء بخطبة الحاجة فذاك أحسن.

---

(1) المصدر السابق.

(2) "القصّاص والمذكرين" ص 182.

(3) "القصاص والمذكرين" ص 181.

(4)القصاص والمذكرين ج1/ص360

ثم يشرع الخطيب في خطبته وموعظته..حتى إذا انتهى منها ختمها بالدعاء والاستغفار[1].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "فإذا فرغ القراء حمد الواعظ الله عز وجل وأثنى عليه وعلى رسوله وأصحابه ودعا للإمام والرعية، فإن كانت له صناعة في إنشاء الخطبة، أو كان يحفظ خطبة فيذكرها ولا بأس"[2].

3ـ صوت الخطيب والواعظ وهيئته:

–كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش[3]، وكان يشير بأصبعه السبابة في خطبته عند ذكر الله تعالى ودعائه.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "ولا بأس للواعظ –والخطيب– أن يرفع صوته، ويظهر الجدّ في تحذيره ووعظه"[4].

المطلب الثاني: الصفات الخُلُقية

الخطيب والواعظ مطالب بالتحلّي بجميع الأخلاق الحسنة، والتخلّي عن جميع مساويها؛ إلاّ أنه ثمة أخلاق يتعيّن على كلّ خطيب وواعظ أن يكون متّصفاً بها، لعظيم ارتباطها بالخطابة والوعظ، وقد أشار إلى بعضها الإمام ابن الجوزي [5]، ومن أبرزها ما يأتي:

1ـ تقوى الله تعالى:

قال ابن الجوزي رحمه الله: "وإن قلوب الناس لتعرف حال الشخص، و تحبه أو تأباه، وتذمه، أو تمدحه وفق ما يتحقق بينه و بين الله تعالى، فإنه يكفيه كلّ هم و يدفع عنه كل شر.

وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون أن ينظر الحق إلاّ انعكس مقصوده، وعاد حامده ذاماً"[6].

وفي التقوى إطلاق نور البصيرة، والتي هي زاد الداعية والخطيب في دعوته ووعظه، وطريق البصيرة –وهي قوة العلم وعمق الفهم– إنما يمرّ على التقوى، وبقدر تقوى الخطيب تكون بصيرته، وهذه البصيرة

---

(1) زاد المعاد 411/1.

(2) القصاص والمذكرين ج1/ص361

(3) رواه مسلم من حديث جابر س كتاب: الجمعة، باب: تخفيف الخطبة والصلاة، رقم: 1435.

(4) القصاص والمذكرين، ص 363.

(5) أخلاق الدعاة والخطباء كثيرة، وسوف أقتصر على بعض الأخلاق التي وجدت لابن الجوزي كلاماً حولها في مقام الخطابة.

(6) صيد الخاطر، ص 108.

نورٌ للخطيب وفرقان يفرّق به بين الحق والباطل، ويعصمه من الفتن والزلل، وكم من الخطباء الذين قلّت بصيرتهم، فغدوا معاول هدم، ومشاعل فتن.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه، فالله الله في السرائر؛ فإنه ما ينفع مع فسادها صلاحُ ظاهرٍ"(1).

وبقدر تقوى الخطيب والواعظ وخشيته لربه، وإصلاحه لسريرته يكون تأثيره في المستمعين، فخطب المتقين تبكي القلوب، وخطب غيرهم لا تكاد تبكي العيون.

2ـ الإخلاص:

إنّ الخطيب والواعظ محطّ الأنظار، وتتبّع الأبصار، واجتماع الخلق عليه، وهذه من أعظم الأمور التي تفتن القلوب، وتذهب بالإخلاص، قال ابن الجوزي رحمه الله في ذكر بعض آفات الخطباء والقصّاص: "ثم قد غلب على أربابه قلة العلم وعدم الإخلاص"(2).

وحذر من السمعة والرياء وانحراف المقاصد لدى الخطباء والوعّاظ فقال: "وأما المقاصد، فجمهور القوم يطلبون الدنيا، ويحتالون بالقصص والوعظ عليها، وربما امتنع أحدهم من أخذ العطاء تصنعاً، ليقال: زاهد ليأخذ أكثر مما ردّ، وأكثرهم لا يمتنع من أخذ أموال الظلمة، ثم يطلبون، وعندهم ما يكفي، وأكثر الناس إنما يعطون من زكاة أموالهم، فكيف يستحلّ أخذ الزكاة من له ما يغنيه؟"(3).

3ـ موافقة العمل للقول وتصديقه له:

وذلك أن الداعي من المدعو يجري مجرى الطابع من المطبوع، فكما أنه محال أن ينطبع الطين على الطابع بما ليس منتقشاً به، فكذلك محال أن يحصل في نفس المدعو ما ليس بموجود من الخطيب، فإذا لم يكن الخطيب إلا ذا قول مجرد من العمل لم يكن نصيب المدعو منه إلا القول، فكيف يستقيم الظل والعود أعوج؟ !وفاقد النور كيف يستنير به غيره؟!

وقد عقد الإمام ابن الجوزي رحمه الله في كتابه: "القصاص والمذكرين" باباً في ذمّ من يأمر بالمعروف ولا يأتمر، أورد فيه جملة من الآثار في هذا الباب.

4ـ الصبر:

إنّ الابتلاء للدعاة إلى الله والخطباء سنّة ماضية، لا يسلم منها أحد منهم، فهو ملازم لهم في كلّ أحوالهم قبل الموعظة، وأثنائها، وبعدها.

وطريق الدّعاة والوعّاظ طريق محفوف بالمتاعب والآلام، إذ أن الخطباء يطلبون من الناس ترك ما

(1) "صيد الخاطر" ص 355.

(2) القصاص والمذكرين، ص 201.

(3) "القصاص والمذكرين"، ص 336.

ألفوه، والبعد عما اعتادوا عليه، مما تهواه النفوس وتتلذّذ به، ومن هنا يصبح الخطيب شوكة في حلق كلّ عاص، وعقبة في طريق كلِّ دعيٍّ، فلا يسلم من أذيتهم، ولا ينجو من كيدهم، وهم يحاربونه بكلّ سلاح.

وقد نوّه ابن الجوزي إلى فضيلة الصبر عامة، وللخطيب خاصة فقال: "فالصبر عن الرذائل فضيلة للنفس، بها يحتمل الإنسان الخير والشر، فمن قل صبره فحّكم هواه على عقله، فقد صيّر المتبوع تابعاً، والمأموم إماماً، فلا جرم أن جميع ما يرومه ينعكس عليه، فإنّه يتأذى من حيث قدّر النفع، ويحزن من حيث أراد الفرح"[1].

7. خاتمة

ها أنذا – بحمد الله – ألقي عصا التسيار، متمّماً ما بدأته من البحث في دراسة الخطابة عند الإمام ابن الجوزي رحمه الله.

وأختم ببيان الأمور التالية:

1- الخطابة علم له قواعد وأصول وأساليب وضوابط، لا بدّ من تعلّمها ثم التمرّس عليها والتعوّد، يؤازر ذلك المقدرة النفسية، والموهبة الإلهية.

2- للخطيب المبرّز صفات عديدة؛ دائرة بين التأصيل العلمي، والتقوى والاستقامة، والتحلّي بكريم الخصال وطيب الفعال.

3- اتّسمت الخطابة عند ابن الجوزي بخصائص عظيمة: فهي تجمع بين الأصالة في مصادرها، والتنوّع في أساليبها ومضامينها، والقوة في بيانها وتراكيبها.

4- للخطابة عيوب تعكّر صفوها وتذهب رونقها، كالإطالة والتكرار، والسجع المتكلّف، والاستشهاد بالأخبار المكذوبة، وغير ذلك من المعايب.

وبعض تلك المعايب متعلّقة بشخص الخطيب، كبعض المنكرات القولية والفعلية والقصدية التي يقع فيها بعض الخطباء.

5- بلغت عناية ابن الجوزي بالخطابة والوعظ الغاية القصوى، واجتمعت فيه آلات الوعظ العلمية والأخلاقية والإيمانية، حتى غدا علماً مبرّزاً مقدماً في فن الخطابة والوعظ.

6- أطبقت خطب ابن الجوزي الآفاق، وانتفع بها الحاضر والباد، وجميع صنوف الخلق، فأسلم على يديه خلق، وتاب آخرون، وكثر الانتفاع بخطبه ومواعظه.

---

(1) "الطب الروحاني" لابن الجوزي، ص 20.

8. قائمة المراجع والمصادر

1. آبادي: محمد شمس الحق العظيم. عون المعبود شرح سنن أبي داود، ط2، دار الكتب العلمية – بيروت – 1995م.
2. أحمد غلوش: قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين، دون ناشر، 1979م.
3. الأزهري: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور. تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط1، دار إحياء التراث العربي – بيروت، 2001م.
4. آل نواب: الدراسة النظرية للخطابة، لعبد الرب نواب الدين، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية.
5. البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة، 1422هـ
6. بيومي: مصلح سيد. الخطابة في الإسلام وإعداد الخطيب الداعية، ط2، دار الهدى للطباعة، القاهرة، 1988م.
7. ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحران. مجموع الفتاوى، ط 1، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ/1995م.
8. الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الليثي أبو عثمان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ .
9. الجرجاني: علي بن محمد بن علي الزين الشريف، ط1، دار الكتب العلمية بيروت، 1403هـ – 1983م.
10. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله البغدادي. بستان الواعظين ورياض السامعين بستان الواعظين ورياض السامعين، تحقيق: أيمن البحيري، ط3، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت – لبنان – 1419 – 1998.
11. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن البغدادي. التذكرة في الوعظ، تحقيق: أحمد عبد الوهاب، ط1، دار المعرفة – بيروت – 1406.
12. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن البغدادي. الطب الروحاني، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1406هـ–1986م.
13. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن البغدادي. القصاص والمذكرين، تحقيق: د. محمد لطفي الصباغ.ط2، المكتب الإسلامي – بيروت – 1409 هـ –

1988م.
14. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن البغدادي. تلبيس إبليس، تحقيق: د. السيد الجميلي، ط1، دار الكتاب العربي – بيروت – 1405هـ – 1985م
15. ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن البغدادي. صيد الخاطر، ط1، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – 1424 هـ، الطبعة الأولى.
16. الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين – بيروت،1407 هـ – 1987 م.
17. ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق السلمي. صحيح ابن خزيمة، المكتب الإسلامي – بيروت.
18. الداودي: أحمد بن محمد الداودي. طبقات المفسرين، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي.ط1، مكتبة العلوم والحكم – السعودية – 1417هـ.
19. الدويش: محمد بن عبد الله الدويش. حتى نستفيد من خطبة الجمعة، مجلة البيان – عدد 65.
20. الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. سير أعلام النبلاء، دار الحديث– القاهرة، 1427هـ–2006م.
21. الرازي: فخر الدين محمد بن عمر التميمي. مفاتح الغيب = التفسير الكبير، ط1، دار الكتب العلمية – بيروت، 1421هـ .
22. الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، ط1، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – 1415هـ.
23. ابن رجب: زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط7، مؤسسة الرسالة – بيروت – 1417هـ .
24. ابن رجب: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن البغدادي الدمشقي الحنبلي. ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط1، مكتبة العبيكان – الرياض، 1425 هـ – 2005 م.
25. ابن رشد: أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد. تلخيص الخطابة، تحقيق: محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1387هـ– 1967م.
26. السخاوي: أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد. المقاصد الحسنة في بيان كثير من

الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق: محمد عثمان الخشت، ط1، دار الكتاب العربي – بيروت – 1405 هـ – 1985م.

27. الشوكاني: محمد بن علي بن محمد. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير،دار الفكر – بيروت.

28. أبو فارس: إرشادات لتحسين خطبة الجمعة، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 1995م.

29. الفريح: مازن بن عبد الكريم. الرائد دروس في التربية والدعوة، ط1، دار الأندلس الخضراء – جدة – 1423 هـ،

30. ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. زاد المعاد في هدي خير العباد، ط 27، مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، 1415هـ /1994م.

31. ابن كثير: إسماعيل بن عمر الدمشقي أبو الفداء. البداية والنهاية، مكتبة المعارف – بيروت.

32. ابن كثير: إسماعيل بن عمر الدمشقي أبو الفداء. تفسير القرآن العظيم، دار الفكر – بيروت – 1401 هـ..

33. الكساني: علاء الدين. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ط2، دار الكتاب العربي – بيروت – 1982م.

34. مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صحيح مسلم، دار الجيل – بيروت، بدون معلومات.

35. المغذوي: عبد الرحيم بن محمد المغذّوي. وسائل الدعوة، ط1، دار إشبيليا للنشر والتوزيع – الرياض – 1420 هـ.

36. المناوي: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحداد. فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط1، المكتبة التجارية الكبرى – مصر – 1356هـ.

37. ابن منظور: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الإفريقى. لسان العرب، ط3، دار صادر – بيروت،1414 هـ.

38. النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، دار إحياء التراث العربي – بيروت، 1392هـ.